



أعمق تغيير في التاريخ كان سلمياً وهادئاً، ولكنه حاسم وعميق.. غير النبي - عليه الصلاة والسلام - المعتقدات والسلوك والعادات الاجتماعية بالإقناع والرفق والرحمة واللين، واستخدم القوة في أضيق نطاق. ثلاث عشرة سنة في مكة كانت مرحلة استضعفاف. معركة بدر كانت من غير ترتيب. معركة أحد كانت دفاعاً.

الأحزاب كانت دفاعاً. صلح الحديبية كان ميثاقاً ظنه بعض المسلمين دنياً في دينهم. فتح مكة لم يُرق فيه إلا القليل من الدماء وتم إعلان «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

أنصف المظلومين، وحرر العبيد، ورفع قيمة الإنسان، وكرّ المرأة. أزال أبهة المتنفذين والمستبدين بأقل الخسائر. تعجب كيف قضى النبي - صلى الله عليه وسلم - على عادات الثأر في الجاهلية العربية! وكيف بنى العقلية الوعية المنشقة من التقليد والتبعية، ومن الكهانة والعرافة والخط والرمل! وكيف بنى الحاجز النفسية في عقول أتباعه ضد كل ما هو "جاهلية". "تبرج الجاهلية" "حمية الجاهلية" "حكم الجاهلية" "فخر الجاهلية" "عصبية الجاهلية" حتى قال لأبي ذر: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِي كَجَاهِلَيَّةٍ».

لم يهادن الوثنية طرفة عين مهما كانت التضحيات، وسعى لهدمها في عقول الناس ومشاعرهم، وبناء التوحيد، ولكنه دخل مكة في عمرة القضاء وحول الكعبة ثلاثة وستون صنماً فلم يهدمها، لأن إعادة بنائها سهل وبطريقة أفضل لدى من لا يزالون يؤمنون بها، ويملكون فعل ذلك، ولم يهدمها حتى فتح مكة ودانت له الأرض ومن عليها، وصنع القناعة الراسخة ببطلانها لدى القاعدة العريضة من الناس حتى قال قائلهم (لو كانت تفني شيئاً ما خذلتنا).

يظهر صبره - صلى الله عليه وسلم - في التعايش مع الوثنين بمكة، واستنفاد كل الوسائل في مصايرتهم وسعة الصدر عليهم مع صدودهم وأذاهم وعدوانهم عليه وعلى أصحابه من الرجال والنساء.

ثم في المدينة، حيث ساكن اليهود والوثنيين من الأوس والخزرج والمنافقين وضيوف الإيمان ظلوا موجودين إلى آخر حياته، فقد نزلت سورة الحجرات سنة تسع، وفيها التحذير من سوء الأدب معه ورفع الصوت ومن التنازع بالألفاظ والسخرية وسوء الظن، وختمت بقوله تعالى: {فَالَّتِي أَلْأَعْرَابُ أَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلْتَمُكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (14) سورة الحجرات.

ولقد مات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودرعه مرهونة عند يهودي على طعام اشتراه لأهله، لقد كان الشراء بالنسبة

له خيراً، والبيع بالنسبة لليهودي خيراً، وهذا أساس التعايش أن تدرك أن مصلحتك ربما تكون هي مصلحة الآخرين أيضاً، والعكس صحيح.

كان درساً عملياً للأجيال أن تكون المدينة النبوية عاصمة الإسلام الأولى حافلة بهذا التنوع؛ ليتعلم الناس أسلوب الداعية العظيم في التعامل مع مساكنه ومواطنه من غير أهل ملته.

الحكم الإسلامي عبر العصور حفظ الطوائف والمذاهب المختلفة ضمن نسيجه الاجتماعي، ولم يفرض عليهم تغيير مذاهبهم، وإن كان يجادلهم بالتي هي أحسن.

حين يتهتك هذا النسيج بسبب صدامات تغذيها السياسة وتحفز عليه الجهالة ويضر بها التعصب وضيق الأفق تقع المصدامات بين الجيران وينسى الناس الوصية النبوية بحسن الجوار حتى مع الخصوم، وقد حكت لنا السنة عن تعامل النبي - صلى الله عليه وسلم - مع جاره اليهودي.

عند الصدام يتراجع مستوى الوعي والعقل ويهرع الناس إلى سوء الظن بالأخر والاستعداد لأسوأ الاحتمالات فيعودون للوعي الأولي البدائي.

العقلاء يدركون أن هذا الأمر طارئ وقابل للتراجع حين تضع الحروب أوزارها ويفكر الناس بالمصالح المشتركة والعيش والمساكنة. ولهذا مدح عمرو بن العاص الروم بأنهم "أسرع الناس إفادة بعد مصيبة".

هو هنا يتحدث عن صفة في العقل الجمعي لهم، وأنهم يتجاوزون فترات التوتر وال الحرب والاحتقان إلى ميدان الحوار والبحث عن المشترك، وهذا ما شاهدناه في أوروبا بعد الحربين العالميتين، حيث اتجهت شعوبها إلى العولمة والاتحاد في السوق الأوروبية ثم في الاتحاد الأوروبي بمؤسساته الضخمة.

بينما تظل بعض القبائل العربية بسبب عادة الثأر محتفظة بعادتها القديمة تلقنها لأجيالها الشابة وتعيد إنتاج قصصها وأشعارها وكأنها حدثت البارحة.

وقد يأخذ هذا الاحتقان طابعاً مذهبياً أو صفة حزبية في quam الناس المذهب أو الانتقام السياسي أو الفكري في علاقاتهم وتجد هذا لدى الإسلامي والعلماني، مما يدل على أن الفكر لم يفلح في تهذيب هذه النزعة، ولكنه وجهها ذات اليمين أو ذات الشمال.